جمهورية العراق

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة تكريت

كلية التربية للعلوم الانسانية/قسم التاريخ

المرحلة الثانية

اسم المادة :تاريخ الوطن العربي في العهد العثماني 1516- 1916

المحاضرة الثالثة

حملة نابليون على مصر

تاريخ الوطن العربي في العهد العثماني 1516-1916 م

م.م.رنا فرج علي

1446

2025م

بدء عملية الغزو وظروفه :

أبحرت الحملة من ميناء طولون في جنوب فرنسا في 12 آيار 1798م بقيادة الجنرال نابليون بونابرت وكانت الحملة مؤلفة من 36000 مقاتل وما لزمهم من الخيول والمدافع ، ورافقها 146 عالما وفنانا وجغرافيا وفلكيا وجيولوجيا وطبيبا ، فضلا عن معاملهم وأدواتهم العلمية ، وكان معظمهم أعضاء المجمع العلمي الفرنسي وقد استولت الحملة الفرنسية في طريقها على جزيرة مالطا في 9 حزيران سنة 1798م واتخذتها قاعدة في الطريق ، كما واستصحب بونابرت معه عددا من سكانها العرب للاستفادة منهم في الترجمة والتفاهم مع المصريين ، وكانت الحملة في تحركها من طولون نحو مصر تحيط نفسها بدرجة عالية من الكتمان والحذر خوفا من مطاردة الأسطول البريطاني الذي كان يجوب البحر المتوسط آنذاك بقيادة الأميرال نلسون وقد أقلعت باتجاه كريت للإفلات من الاسطول البريطاني ، وفي أواخر شهر حزيران اقتربت من الشواطئ المصرية عند مدينة الاسكندرية ، وقد علم بونابرت بأن الاسطول البريطاني قد سبق الحملة الفرنسية إلى ميناء الاسكندرية بثلاثة أيام وأنه غادر الميناء المذكور بحثا عن الاسطول الفرنسي في شواطئ البحر المتوسط .

بدأ إنزال الجيش الفرنسي بالقرب من الاسكندرية في اول تموز 1798م وقد استعد أهالي الاسكندرية للمقاومة فأخذوا يحصنون القلاع ويزيدون عدد الجنود بالمتطوعين للقتال واستعان السيد محمد كريم حاكم الاسكندرية بالمماليك في القاهرة لإرسال قوات كافية تساعده في المقاومة إلا أن حكام مصر من المماليك استهانوا بالأمر وقالوا إنهم سيقذفون الفرنسيين بالبحر ، وإن مصيرهم سيكون مصير لويس التاسع وجيشه .

لقد عانت مصر بعد عودة المماليك إلى حكمها من فوضى سياسية وتخلف اقتصادي وجمود ثقافي وفي الوقت الذي كانت جحافل بونابرت تطرق أبوبها كان يتنازع الحكم فيها أميران من المماليك هما إبراهيم بك ومراد بك ، ولم يكن مراد بك بمستوى المسؤولية حين حذره المسيو روستي قنصل النمسا في القاهرة من أن بونابرت قادم إلى مصر فقد أجاب على هذا التحذير قائلا :

(ماذا تريد من إخافتنا من الفرنسيين ؟ أليسوا أشباه الخواجات الذين نراهم بيننا ، إنه ليكفيني إذا نزلوا إلى سواحل مصر في مئة ألف من رجالهم أن أبعث للقائهم ببعض صغار المماليك ليقطعوا رؤوسهم)

وحين حاول المسيو روستي إقناعه بأن الفرنسيين الذين فازوا بالنصر المبين في ايطاليا هم غير التجار المساكين الذين اعتاد رؤيتهم في أسواق القاهرة ، وألح عليه بتحصين الاسكندرية ، أرسل إلى الاسكندرية قنطارين من البارود فقط ذخيرة لمدافعها ، وفي هذا دلالة واضحة على أن المماليك كانوا يعيشون منعزلين عن أحداث أوربا وتطورها في مختلف الميادين ، ولاسيما العسكرية منها .

ومهما يكن فقد اعتمد المصريون على انفسهم في الدفاع عن وطنهم ضد الغزو الفرنسي ، فبعد مقاومة عنيفة من سكان الأسكندرية ، استطاع بونابرت دخول المدينة ، وقد فقد الفرنسيون في معارك المقاومة المصرية قرابة مائة وعشرين قتيلا وجريحا ، اما رجال المقاومة فقد خسروا ما بين سبعمائة وثمانمائة بين قتيل وجريح ، وقد اعتصم السيد محمد كريم في رهط من أتباعه بقلعة قاتيباي احتجاجا على الاحتلال وأعلنت الاسكندرية مدينة مفتوحة وسلمت بواسطة إدريس بك قائد إحدى السفن العثمانية التي كانت راسية هناك ، وقد شهد قواد الغزو باستماتة اهالي الإسكندرية في الدفاع عن مدينتهم ، والى شيء من هذا القبيل يشير الجنرال مينو في تقريره إلى بونابرت ، فيقول :

(إن الجنود يستحقون الثناء العظيم على ما بذلوه من الإقدام والهمة والذكاء وسط المخاطر العظيمة التي كانت تحيط بهم ، لأن الأعداء – يعني أهالي الاسكندرية – قد دافعوا عن المدينة بشجاعة وثبات عظيم) .

واصل بونابرت زحفه نحو القاهرة ، وقد واجده جيشه صعوبات جمة لشدة الحر وقلة الماء والغذاء ، وكان أبناء العشائر العربية المنتشرة على الطريق بين الاسكندرية والقاهرة يتعقبون الجنود الفرنسيين ويغيرون عليهم ، وبالقرب من أهرام الجيزة وفي موقع غير بعيد عن القاهرة حدثت المعركة الفاصلة وهي معركة الإهرام أو امبابة ، وفيها اصطدم النظام العسكري المملوكي المتخلف بالنظام العسكري الفرنسي الحديث ، وانكشف أمر المماليك فلم يصمدوا طويلا وانقسموا إلى شطرين ، رحل الأول إلى الشام بقيادة إبراهيم بك ، وتراجع الثاني إلى الصعيد بقيادة مراد بك ، وقد تكبد المماليك خسائر جسيمة خلافا للفرنسيين الذين كانت خسائرهم طفيفة ، وهكذا اضطرت إلى الاستسلام فدخلها الفرنسيون في 21 تموز 1798م .

وزع بونابرت منذ اول يوم لنزول قواته أرض مصر منشورا باللغة العربية ، أعده المستشرقون الذين رافقوه ، وطبعت نسخ منه كثيرة وفي هذا المنشور اقترنت وبشكل غريب أفكار الثورة الفرنسية في الحرية والمساواة مع تهديدات المحتل الغاصب وحيل السماسرة المحترفين وتلاعبهم بعواطف الناس ومشاعرهم الدينية وقد نقل الجبرتي المنشور بنصه ومما جاء فيه :

(بسم الله الرحمن الرحيم ، لا إله إلا الله ، لا ولد له ولا شريك له في ملكه ، ومن طرف الفرنساوية المبني على أساس الحرية والتسوية (المساواة) السر عسكر الكبير أمير الجيوش الفرنساوية بونابرت ، يعرف أهالي مصر جميعهم أن من زمان مديد السناجق الذين يتسلطون في البلاد المصرية يتعاملون بالذل والاحتقار في حق الملة (يعني الرعايا) الفرنساوية ويظلمون تجارها بأنواع الإيذاء والتعدي ، فحضرت

الآن ساعة عقوبتهم وأخرنا من مدة عصور طويلة هذه الزمرة المماليك ، يفسدون في الإقليم الحسن ، فأما رب العالمين القادر على كل شيء فإنه قد حكم على انقضاء حكمهم ، يا أيها المصريون ... إنني ما قدمت إليكم إلا لأخلص حقكم من يد الظالمين) .

ومما جاء في النداء كذلك :

(إن جميع الناس متساوون عند الله ، وإن الشيء الذي يفرقهم عن بعضهم هو العقل والفضائل والعلوم فقط ، تضارب ، طوبى ثم طوبى لأهالي مصر الذين يتفقون معنا بلا تأخير فيصلح حالهم وتعلو مراتبهم ، لكن الويل ثم الويل للذين يتعمدون على المماليك في محاربتنا ، فلا يجدون بعد ذلك طريقا إلى الخلاص ولا يبقى منها أثر ... وكل قرية تقوم (أي تثور) على العسكر الفرنساوي تحرق بالنار) .

وشرع بونابرت بعد دخوله القاهرة ينظم إدارة مصر ، وكان من أهم إجراءاته تشكيل ديوان لحكومة القاهرة ودواوين في المديريات المصرية تعمل إلى جانب الحكام العسكريين الفرنسيين وقد دعا إلى اجتماع عام يعقد في القاهرة من الأشخاص الذين لهم نفوذ بين الأهالي ، ومن الذين امتازوا بمركزهم العلمي وكفايتهم وطريقة استقبالهم للفرنسيين) وكان هدفه من ذلك استشارتهم في التكيف النهائي للدواوين وفي وضع الجهاز الإداري والمالي للحكومة ، وعين بونابرت من علماء الحملة الفرنسية لحضور المناقشات وتوجيهها ، وضمن تعليماته في رسالة لهما قال فيها :

(إن الغرض من عقد الدواوين هو تعويد الأعيان المصريين على نظم المجالس الشورية والحكم ، فقولوا لهم : إني دعوتهم لاستشارتهم وتلقي آرائهم فيما يعود على الشعب بالسعادة والرفاهية ، وما يفكرون في عمله إذ كان لنا حق الفتح الذي حزناه في ميدان القتال) .

وحدد بونابرت المسائل التي ينبغي على الديوان العام أن يبدي رأيه فيها ، وهي كما جاء في التعليمات :

أولا : ما هو أصلح نظام لتأليف مجالس الديوان في المديريات .

ثانيا : ما هو النظام الذي يجب وضعه للقضاء المدني والجنائي .

ثالثا : ما هو التشريع الذي يكفل ضبط المواريث ، ومحو أنواع الشكاوى والإجحاف الموجودة في النظام المالي .

رابعا : ما هي الإصلاحات والاقتراحات التي يراها الديوان لإثبات العقارات وفرض الضرائب ، ويجب أن تفهموا الأعضاء بأننا لا نقصد إلا توفير السعادة والرفاهية للبلاد التي تشكو من سوء نظام الضرائب الحالي ، كما تشكو من طريقة تحصيلها ، وعليكم أن تضعوا للديوان نظامه الداخلي كما يأتي : (أن ينتخب الأعضاء رئيسا له ونائبا للرئيس وسكرتيرين ، ومترجمين اثنين وثلاثة مراقبين ، وأن يكون ذلك بطريق الاقتراع وبكل مظاهر الانتخاب ، وعليكم أن تتبعوا المناقشات وتدونوا أسماء الأعضاء الذين يمتازون عن زملائهم في الديوان سواء بنفوذهم أو بكفايتهم) .

واعتقد بعض المؤرخين أن بونابرت حاول إيجاد نظام جديد يحل محل نظام الحكم العثماني البالي ، ويولد في أحضان الجمهورية الفرنسية وفق المبادئ التي أعلنتها الثورة الفرنسية ، ولكنه اصطدم بالمقاومة الشعبية وفشل في مهمته ، وظل المصريون يعتقدون أن الفرنسيين أجانب عنهم وأعداء الدين الإسلامي والواجب يقتضي طردهم من البلاد ، وأن سلطة ديوان السلطة الفعلية ظلت بوجه عام في يد قوات الاحتلال وأن سلطة ديوان بونابرت الذي تألف في 4 أيلول 1798م . لم تكن تتعدى مدينة القاهرة وهي استشارية ومقيدة يتعهد أعضاؤه أن لا يعملوا أي شيء ضد

مصلحة الجيش الفرنسي ، فضلا عن أنهم كانوا يعملون ويتداولون – كما يقول المؤرخ المصري عبد الرحمن الرافعي – (بعين من الفرنسيين وتحت المراقبة المستمرة) وكان طبيعيا أن يضم الديوان الأعيان والملاك والتجار والمشايخ والعلماء الذين رحبوا بالاحتلال وسلموا القاهرة دون مقاومة ، وقد وصل عدد أعضاء الديوان العام إلى (25) عضوا ، تسعة منهم عن القاهرة وواحد من كل مديرية من المديريات الست عشرة ، بحيث يكون ثلث أعضائه من مشايخ البلاد وثلثهم من التجار ، الباقي من رجال الأزهر ، ويختار الديوان العام من بينه تسعة أعضاء يتألف منهم الديوان الخاص ، الذي يجتمع باستمرار في القاهرة ، ويكون في كل مديرية ديوان مؤلف من تسعة أعضاء ينتخبون بمعرفة جمعية مؤلفة في كل مديرية من العلماء والأئمة والمشايخ وأكابر التجار والصناع وأعيانهم .

وبعد سقوط القاهرة بقليل وصلت أنباء إلى بونابرت تفيد بأن الاسطول البريطاني بقيادة نلسون قد عاد إلى الاسكندرية ودمر الاسطول الفرنسي في موقعة ابن قير البحرية في اول آب سنة1798 ، وكان لهذا الموقعة أثر كبير في القضاء على مشروع الفرنسيين بإرسال حملة إلى الهند لإخراج الانكليز ، وكانت لها نتائج خطيرة على الجيش الفرنسي الموجود في مصر ، إذ قطعت الصلة بينه وبين فرنسا نفسها ، واضطر بونابرت إلى الاعتماد على مصر في تموين جيشه ، ولم تقف آثار هذه المعركة عند هذا بل جعلت السلطان العثماني يعقد تحالفا مع روسيا ضد فرنسا في 23 كانون الأول سنة 1798م كما تم عقد معاهدة تحالف بين بريطانيا والدولة العثمانية في 5 كانون الثاني 1799 تألفت من مقدمة وثلاثة عشر مادة .

وقد أشارت المقدمة إلى أن التحالف إنما كان موجها ضد (الاعتداءات العديدة الدنيئة التي قام بها الفرنسيون) ودلت المادة الأولى على أن المعاهدة كانت على نمط المعاهدة البريطانية – الروسية المنعقدة آنذاك ، إذ كان القصد تأليف تحالف

ثلاثي تكون بريطانيا حلقة الوصل فيه ، وفي المادة تعهدت بريطانيا والدولة العثمانية تعهدا متقابلا بضمان حدود ممتلكات كل منهما كما كانت قبل غزو الفرنسيين لمصر ، وكانت هذه المادة كما يقول المؤرخ العراقي الدكتور زكي صالح ، صراحة هي بيت القصيد ، فقد نجح الانكليز في استمالة الباب العالي إلى جانبهم ، وأًبحت لهم السيطرة على مداخل الطريق البري إلى الهند ، وقاموا في الهند نفسها بما أدى إلى استقرار مركزهم وهيبتهم هناك ثم تمكنوا من عقد اتفاق ودي مع إيران ، وكذلك مع إمامة عمان ووجهوا إلى العراق لأول مرة انتباها دبلوماسيا خطيرا .

وبالرغم من محاولة القائم بالأعمال الفرنسي في استانبول المسيو روفين إفهام الحكومة العثمانية بأن الحملة الفرنسية الموجهة إلى مصر لم تكن لها أهداف عدوانية ضد الدولة العثمانية ، وأن الحكومة الفرنسية ترغب رغبة صادقة في إبقاء العلاقات الودية بينهما ، إلا أن العثمانيين لم يقتنعوا بهذه الحجة واعتقلوا القناصل والرعايا الفرنسيين وصادروا ممتلكاتهم ، وكان على بونابرت أن يتفرغ لمواجهة الأخطار الخارجية فضلا عن الأوضاع الداخلية التي تمثلت بقيادة الثورة المصرية الأولى ضد الحكم الفرنسي .